

****الفصل الأول****

****المهمة الروتينية****

كانت السفينة «النسر» تقطع الفراغ الأسود بسرعة ثابتة هادئة، كأنها لا تعرف أن الحرب ما زالت مشتعلة في أماكن أخرى من النظام الشمسي.

الكابتن شوقي وقف أمام النافذة العريضة في غرفة القيادة، يداه خلف ظهره، وعيناه تتابعان النجوم البعيدة التي لا تتحرك. السفينة صغيرة، من طراز «كشافة-٧»، مصممة للمهام السريعة لا للمعارك الكبرى. طاقمها ثلاثة رجال فقط... إلى أن جاء الأمر الأخير.

- المسافة إلى نقطة الالتقاء تسعون دقيقة يا كابتن.

صوت عادل فوزي جاء من محطة الكمبيوتر والمسح على اليمين. عادل كان أصغر أفراد الطاقم، نحيل، سريع الأصابع، ولا ينام إلا والقراءات أمام عينيه.

شوقي أجاب دون أن يلتفت:

- حافظ على الصمت اللاسلكي الكامل. لا إشارات، لا ردود، لا حتى نبضة استطلاع.

من الجهة اليسرى رفع حسني كامل رأسه من أجهزة الاتصالات. حسني أكبرهم سناً بعد الكابتن، صوته دائماً هادئ كأنه اعتاد أن ينقل أخبار الموت ببرود مهني:

- الإشارة المشفرة وصلت منذ ساعة. الطرف الآخر يؤكد أنه وحده، ولا مطاردة خلفه.

شوقي أخيراً ابتعد عن النافذة وعاد إلى مقعده. الشاشة الرئيسية أمامه تعرض خريطة النظام الشمسي المبسطة: الأرض في الأزرق الباهت، المريخ في الأحمر القاني، وبينهما مناطق رمادية واسعة تُسمى «مناطق النزاع غير المعلنة». الحرب لم تُعلن رسمياً بعد، لكنها كانت موجودة في كل مكان: سفن تختفي، قوافل تُهاجم، ودعايات تتهم كل طرف بأنه يريد تدمير الآخر.

والآن هذه المهمة.

- هل ما زلت تعتقد أنها فكرة سيئة؟ - سأله عادل فجأة دون أن يرفع عينيه عن الشاشات.

شوقي ابتسم ابتسامة قصيرة بلا فرح.

- أنا لا أؤمن بحزب السلام بين الكواكب، عادل. ولا أؤمن بأن منشقاً مريخياً واحداً يستطيع تغيير شيء. لكن الأوامر وصلت من القيادة العليا مباشرة... ونحن ننفذ.

حسني intervenes بهدوء:

- زارا ليس منشقاً عادياً. هو مؤسس الحزب. والمرح يضعون على رأسه ثمناً يساوي أسطولاً صغيراً.

- أعرف - قال شوقي. - ولهذا السبب بالذات أشعر أن هذه السفينة الصغيرة صارت فجأة أهم هدف في هذا الجزء من الفضاء.

مرت الدقائق ببطء. السفينة اهتزت اهتزازة خفيفة مرة واحدة عندما تجاوزت حزاماً رقيقاً من الغبار الكوني، ثم عادت إلى هدوئها. عادل كان يراجع القراءات مراراً، حسني يراقب الطيف اللاسلكي كله، وشوقي يفكر في الرجل الذي سيصعد إلى سفينته بعد أقل من ساعة.

زارا.

مريخي. عالم رياضيات قبل أن يصبح سياسياً. ترك كوكبه منذ عامين حاملاً معه وثائق وخوارزميات قال إنها تثبت أن الحرب ليست حتمية. أسس «حزب السلام بين الكواكب» من المنفى، وصار اسمه يُذكر في كل مفاوضات سرية وكل خطاب كراهية على المريخ. والأرض... الأرض قررت أن تحميه. أو تستخدمه. شوقي لم يكن متأكداً من الفرق بعد.

- اقتربنا - قال عادل. - الإشارة البصرية ظهرت. سفينة واحدة صغيرة... مريخية طراز قديم. لا أسلحة ظاهرة نشطة.

شوقي نهض.

- حسني، افتح القناة المشفرة الضيقة فقط. عادل... راقب كل شيء حولنا. أي حركة غريبة، حتى لو كانت نيزكاً، أبلغني فوراً.

الصلة فُتحت. على الشاشة ظهرت صورة مهتزة لكابينة ضيقة. الرجل الجالس أمام الكاميرا كان مريضاً واضحاً؛ بشرة تميل إلى اللون النحاسي الداكن، عيانان كبيرتان سوداوان، وملامح حادة هادئة. لم يكن يرتدي زياً عسكرياً. فقط بدلة رمادية بسيطة.

- أنا زارا - قال الرجل بصوتٍ منخفض وواضح. - هل أنتم السفينة «النسر»؟

شوقي وقف أمام الكاميرا.

- أنا الكابتن شوقي. أنت في أمان نسبي الآن. سنفتح فتحة الالتحام خلال اثنتي عشرة دقيقة. أغلق كل أنظمتك غير الضرورية وكن مستعداً للانتقال السريع.

زارا نظر إليه لحظة طويلة، كأنه يقرأ ما خلف الكلمات.

- هل هناك مطاردة خلفي؟

- لا نعلم بعد - أجاب شوقي بصراحة. - لكننا لن ننتظر لنكتشف.

الصلة أُغُلقت. عادل بدأ إجراءات الالتحام. حسني راقب الطيف كأنه ينتظر صرخة مفاجئة. وشوقي عاد إلى النافذة مرة أخرى، ينظر إلى السفينة الصغيرة القادمة نحوهم كنقطة ضوء باهتة في السواد اللانهائي.

في رأسه كانت تدور جملة واحدة فقط:

إذا كان المريخ يريد هذا الرجل بهذه الدرجة...

فربما كان السلام الذي يحمله أخطر من أي سلاح.

السفينة اهتزت قليلاً عندما تماست فتحات الالتحام. الضوء الأحمر فوق الباب تحول إلى أخضر.

وصعد زارا إلى متن «النسر».

****الفصل الثاني****

****التوتر داخل السفينة****

زارا لم يطلب طعاماً ولا راحة فور صعوده.

دخل غرفة القيادة خلف شوقي مباشرة، نظر إلى الشاشات واحدة واحدة، ثم وقف عند النافذة العريضة كأن الفضاء نفسه يخصه. طوله كان أقل قليلاً من متوسط طول أهل الأرض، لكن حضوره كان يملأ المكان بهدوء غريب. عادل توقف عن الكتابة لحظة، وحسني رفع عينيه من الأجهزة ثم عاد إليها بسرعة.

شوقي أغلق باب غرفة القيادة وقال:

- من هذه اللحظة أنت تحت حماية هذه السفينة. لكن الحماية لها شروط. لا تستخدم أي جهاز اتصالات خاص، لا ترسل إشارات، ولا تطلب معرفة مسارنا الكامل.

زارا التفت إليه ببطء. عيناه السوداوان الواسعتان لم تكن فيهما عدائية، فقط إرهاق عميق وحسابات مستمرة.

- أنا لا أحمل أجهزة إرسال - قال. - وكل ما أملكه الآن هو ما في رأسي. أما المسار... فأنا لا أحتاجه. أنا أعرف أنكم ستأخذونني إلى مكان تعتقدون أنه آمن. والسؤال هو: هل هناك مكان آمن حقاً؟

عادل intervenes من مقعده:

- نحن بعيدون عن خطوط القتال الرئيسية. الاحتمال الإحصائي لمواجهة سفن مريخية في هذا القطاع أقل من...

- الاحتمالات تتغير عندما يكون الهدف أنا - قاطعه زارا بهدوء. - المريخ لا يرسل أساطيل كاملة من أجل منشق عادي. هم يعرفون ما أحمله.

شوقي اقترب من الطاولة المركزية وأشار إلى مقعد.

- اجلس. ونحن نستمع.

زارا جلس. لم يتكئ. بقي ظهره مستقيماً، يداه على ركبتيه.

- الحرب لم تبدأ بطلقة - بدأ يقول. - بدأت بقرار. منذ سبعة عشر عاماً اكتشف المريخ أن موارده المعدنية في القمر فوبوس تنضب أسرع مما كان متوقعاً. الأرض رفضت مشاركة تقنيات الاستخراج العميق في حزام الكويكبات. المفاوضات فشلت. ثم جاءت حادثة سفينة «الأفق الأحمر»... التي قال المريخ إن الأرض دمرتها، وقالت الأرض إن المريخ فجّرها ليخلق ذريعة. بعدها صار كل شيء أسهل: الدعاية، التجسس، الاشتباكات المحدودة التي لا يعلنها أحد.

حسني رفع رأسه هذه المرة:

- وأنت أسست حزباً للسلام في وسط كل هذا؟

- لأنني رأيت الأرقام - أجاب زارا. - الحرب الشاملة بين الكوكبين لن تترك فائزاً. الغلاف الجوي للمريخ هش، والمدن الأرضية مكتظة. أي استخدام واسع لأسلحة الطاقة العالية أو الفيروسات المعدلة سينهي الحضارة على الجانبين خلال أشهر. قدمت الحسابات لحكومتي. رفضوها. قالوا إن السلام ضعف. فخرجت أحمل معي المعادلات التي تثبت أن البقاء مشترك... أو لا يكون.

شوقي ظل واقفاً، ذراعاه مطويتين.

- والأرض؟ لماذا تعتقد أنها ستستمع إليك أكثر من قومك؟

زارا نظر إليه نظرة طويلة.

- الأرض لا تستمع إليّ حباً في السلام. الأرض تريد أن تمنع المريخ من امتلاك أي تفوق رياضي أو استراتيجي. أنا ورقة. أعرف ذلك. لكن الورقة أحياناً تكون كافية لإيقاف اليد التي تريد أن تضرب.

صمت ثقيل ملأ غرفة القيادة. عادل عاد إلى شاشاته كمن يختبئ داخل الأرقام. حسني راقب الطيف اللاسلكي بتركيز أشد من المعتاد. أما شوقي فقد شعر للمرة الأولى منذ بداية المهمة أن السفينة الصغيرة صارت أضيق مما كانت.

- هناك شيء آخر - قال زارا فجأة. - القائد الذي يطاردني ليس ضابطاً عادياً. اسمه شاسا. درس معي في الأكاديمية العليا قبل أن أترك المريخ. هو يؤمن بأن السلام الذي أحمله أخطر على المريخ من أي أسطول أرضي. لأنه إذا انتشر... فقد يتوقف شعبه عن القتال. وشاسا لا يؤمن إلا بالبقاء عبر القوة.

شوقي رفع حاجبيه قليلاً.

- تعرفينه شخصياً إذن؟

- أعرفه بما يكفي لأعرف أنه لن يتوقف - أجاب زارا. - ولن يهتم بعدد السفن التي يضحي بها من أجل أسري أو قتلي.

في هذه اللحظة صوت إنذار خافت انبعث من محطة عادل. الجميع التفتوا.

- جسم صغير سريع جداً... على أطراف المدى - قال عادل بسرعة. - ليس نيزكاً. مساره يصح نفسه. يبدو... مسار استطلاع.

شوقي عاد إلى مقعده في جزء من الثانية.

- غيّر المسار الآن. زاوية حادة. حسني... صمت لاسلكي مطلق. عادل، راقب إن كان المسبار قد أرسل شيئاً قبل أن نبتعد.

السفينة مالت بعنف محسوب. النجوم في النافذة تحركت كخطوط مائلة. زارا لم يتحرك من مقعده، فقط أغمض عينيه لحظة كأن يحسب شيئاً في رأسه.

بعد دقائق أعلن عادل:

- المسبار فقدنا. لم يسجل إشارة إرسال مؤكدة... لكن لا نستطيع الجزم.

شوقي نظر إلى زارا.

- مرحباً بك رسمياً على متن «النسر». يبدو أن المطاردة بدأت أبكر مما توقعنا.

زارا فتح عينيه، وفيهما للمرة الأولى لمحة شيء يشبه الحزن.

- لم تبدأ الآن يا كابتن.

هي لم تتوقف منذ اليوم الذي غادرت فيه المريخ.

****الفصل الثالث****

****رصد المعركة من بعيد****

بعد اثنتي عشرة ساعة من تغيير المسار، ظهر ما كان الجميع يخشاه.

عادل كان أول من رآه. الشاشات الطويلة أمامه امتلأت فجأة بنقاط حمراء وزرقاء متحركة، ثم بخطوط طاقة قصيرة تومض وتختفي. لم يرفع صوته في البداية. فقط قال بصوتٍ منخفض جداً:

- كابتن... هناك معركة.

شوقي اقترب فوراً. حسني ترك أجهزة الاتصالات وانضم إليهما. زارا ظل في مقعده، لكنه مال بجسده إلى الأمام قليلاً، عيناه مثبتتان على الشاشة الرئيسية.

كانت المعركة على بعد أكثر من مئة وخمسين ألف كيلومتر، في منطقة كانت تُعتبر حتى الأمس «محايدة نسبياً». أسطول أرضي صغير مكون من سبع سفن قتالية متوسطة، يواجه تشكيلةً مريخياً أكبر: إحدى عشرة سفينة، بينها سفينة قيادة ضخمة ذات شكلٍ مميز يعرفه زارا جيداً.

- هذه سفينة «القبضة الحمراء» - همس زارا. - سفينة القيادة الشخصية لشاسا.

شوقي لم يعلق. كان يراقب التوزيع. السفن الأرضية تقاتل بضراوة لكنها تنسحب تدريجياً إلى الخلف، محاولة الحفاظ على مسافة آمنة. المريخيون يتقدمون بتشكيل مُحكم، يطلقون موجات متزامنة من قذائف الطاقة. كل بضع دقائق كانت سفينة أرضية تتلقى ضربة مباشرة فتهتز، ثم تصلح مسارها بصعوبة أو تختفي من الشاشة تماماً.

- هل نستطيع التدخل؟ - سأل عادل، صوته مشدود.

شوقي هز رأسه.

- نحن كشافة. أسلحتنا لا تكفي لمواجهة حتى سفينة مريخية واحدة من هذا الطراز. وإذا اقتربنا... سيعرفون أن زارا معنا خلال دقائق.

حسني كان يراقب الطيف اللاسلكي.

- الإشارات الأرضية مشفرة ومحاصرة. المريخيون يشوشون على كل القنوات تقريباً. لا نستطيع حتى إرسال تحذير فعال.

زارا تحدث فجأة، صوته هادئ لكنه يحمل وزناً:

- شاسا لا يحارب فقط لتدمير هذا الأسطول. هو يبحث. انظروا إلى حركة السفن الجانبية... إنها تمسح القطاعات المحيطة بينما القتال مستمر في المركز. هو يعرف أنني في مكان قريب.

شوقي التفت إليه.

- هل أنت متأكد؟

- أعرف طريقته - أجاوب زارا. - هو لا يهدر سفنًا بهذا العدد من أجل معركة محدودة. هذه عملية تطهير وبحث في آنٍ واحد.

على الشاشة انفجرت إحدى السفن الأرضية في ومضة صامتة بيضاء. عادل أغمض عينيه لحظة. حسني خفض رأسه. شوقي ظل يحدق، ويده اليمنى تنقبض على حافة الطاولة.

مرت دقائق ثقيلة. المعركة كانت تسير في اتجاه واحد واضح. السفن الأرضية تتراجع وتتضاءل، بينما التشكيل المريخي يحافظ على تماسكه ويتقدم ببطء واثق. سفينة «القبضة الحمراء» بقيت في الخلف كقلبٍ أسود يوجه كل شيء.

- كم من الوقت قبل أن ينتهوا منهم؟ - سأل شوقي.

عادل حسب بسرعة.

- إذا استمر المعدل الحالي... أربعون إلى خمسين دقيقة على الأكثر. بعدها سيتفرغون للبحث في القطاعات المجاورة.

شوقي دار حول الطاولة مرة واحدة، يفكر. زارا راقبه دون أن يتكلم. حسني انتظر الأمر. عادل كان يحدّث القراءات كل بضع ثوانٍ كمن يتمسك بشيء ملموس وسط الفوضى.

أخيراً توقف شوقي.

- نبقى على هذا الموقع. صمت كامل. لا ندخل، لا نتدخل، لا نرسل أي شيء. عادل... راقب أي سفينة مريخية تنفصل عن التشكيل الرئيسي وتتجه نحو قطاعنا. حسني... جهز كل قنوات الطوارئ لكن لا تفتحها. زارا...

نظر إلى الرجل المريخي.

- إذا كان لديك أي حسابات أو توقعات عن حركة شاسا القادمة، أريدها الآن لاحقاً.

زارا أوماً برأسه ببطء.

- سأحتاج إلى بيانات أكثر دقة عن سرعاتهم وتوزيعهم. أعطني وصولاً محدوداً إلى نظام المسح.

شوقي تردد ثانية واحدة فقط، ثم قال لعادل:

- أعطه وصولاً للقراءة فقط. لا تحكم.

على الشاشة البعيدة استمرت المعركة الصامتة. ومضات طاقة، سفن ترتجف، وأخرى تختفي إلى الأبد في الفراغ الأسود. داخل «النسر» كان الصمت أثقل من أي انفجار.

زارا بدأ يعمل على البيانات، أصابعه تتحرك بسرعة على اللوحة التي فتحها عادل. شوقي عاد إلى النافذة، ينظر إلى السواد الذي يخفي المعركة عن عينيه المجردتين، لكنه لا يخفيها عن الأجهزة.

في مكان ما هناك، كان رجال يموتون.

وفي مكان ما أقرب، كان شاسا يبحث عن الرجل الجالس الآن خلفه.

وشوقي يعرف أن المسافة الآمنة لن تبقى آمنة إلى الأبد.

****الفصل الرابع****

****ظهور سفينة القيادة****

لم تنتظر الخمسون دقيقة.

بعد سبعة وعشرين دقيقة فقط من بدء الرصد، انفصلت ثلاث سفن مريخية عن التشكيل الرئيسي واتجهت بسرعة حادة نحو القطاع الذي تختبئ فيه «النسر».

عادل رفع صوته هذه المرة:

- ثلاثة أهداف. سرعتها أعلى من المعتاد. مسارها يصحح نفسه كل بضع ثوانٍ... كأنهم يعرفون تقريباً أين نحن.

شوقي وقف خلفه مباشرة.

- هل أرسل المسبار السابق إحداثياتنا؟

- لا يمكن الجزم - أجاب عادل. - لكن الاحتمال ارتفع كثيراً.

زارا كان ما زال أمام لوحة البيانات. أصابعه توقفت لحظة، ثم قال دون أن يلتفت:

- هذه ليست سفن بحث عشوائية. هذه مجموعة مطاردة متخصصة. شاسا لا يرسلها إلا إذا كان واثقاً بنسبة عالية أن الهدف قريب.

في هذه اللحظة ظهرت السفينة الرابعة على أطراف المدى.

أكبر. أبطأ ظاهرياً، لكنها تتحرك بثقة مطلقة. شكلها المميز ظهر على الشاشة كظلٍّ أسود منتظم: سفينة «القبضة الحمراء».

حسني همس، كأن الصوت العالي قد يجذبها:

- سفينة القيادة... جاءت بنفسها.

الصمت الذي ملأ غرفة القيادة كان مختلفاً هذه المرة. لم يكن صمت انتظار، بل صمت إدراك. المطاردة لم تعد احتمالاً. هي هنا.

شوقي عاد إلى مقعده وضغط على سلسلة من الأوامر السريعة.

- أوقف كل الأنظمة غير الضرورية. حتى التهوية اخفضها إلى الحد الأدنى. عادل، أغلق كل أجهزة المسح النشطة. تتحول إلى الرصد السلبي فقط. حسني... أي إشارة، حتى لو كانت نبضة خلفية، تُغلق فوراً.

السفينة صارت أشبه بجسم ميت يطفو في الفراغ. الحرارة الداخلية بدأت ترتفع قليلاً مع انخفاض التهوية. العرق ظهر على جبين عادل، لكنه لم يمسحه.

زارا تحدث بصوتٍ منخفض:

- شاسا سيمسح القطاع بطريقة الشبكة. السفن الثلاث الأمامية ستشكل مثلثاً متسعاً، وسفينة القيادة تبقى في المركز تستقبل البيانات. إذا اقتربوا لمسافة معينة... سيكتشفون حتى الحرارة المتبقية من محركاتنا.

شوقي نظر إليه.

- كم من الوقت لدينا قبل أن يصبح الاكتشاف حتمياً؟

زارا حسب بسرعة في رأسه.

- إذا بقينا صامتين تماماً... ربما خمس وثلاثون إلى أربعين دقيقة. إذا تحركنا الآن بسرعة عالية، سيشعرون بالاضطراب في الحقل فوراً.

عادل التفت إلى الكابتن، عيناه تطلبان أمراً واضحاً.

شوقي كان يحدق في صورة «القبضة الحمراء» على الشاشة. السفينة كانت تتقدم ببطء واثق، كأنها تعرف أن الفريسة في مكان ما أمامها ولا داعي للعجلة.

- زارا - قال شوقي فجأة. - أنت قلت إنك تعرفه. هل هناك أي احتمال أن يتفاوض؟ أو أن يتراجع إذا رأى أن التكلفة مرتفعة؟

زارا هز رأسه ببطء.

- لا. شاسا لا يتفاوض عندما يتعلق الأمر بي. هو يعتبر وجودي حياً خيانة مستمرة لجنسه. وإذا اضطر إلى تدمير قطاع كامل ليضمن قتلي... فسيفعل.

حسني تدخل لأول مرة منذ دقائق:

- إذن الخيارات محدودة. إما نبقى وننتظر أن يجدونا، أو نتحرك ونكشف أنفسنا مبكراً.

شوقي لم يجب فوراً. كان يراقب حركة السفن الثلاث الأمامية وهي تبدأ في الانتشار على شكل قوس واسع. خلفها كانت «القبضة الحمراء» تتقدم كقلبٍ أسود ينبض بثقة.

في الخلفية البعيدة كانت المعركة الأصلية تلفظ أنفاسها الأخيرة. آخر سفينة أرضية اختفت من الشاشة في ومضة صامتة. الآن صار كل انتباه الأسطول المريخي متاحاً للبحث.

شوقي ضغط على زر الاتصال الداخلي، مع أن الجميع كانوا في الغرفة نفسها.

- استمعوا جيداً. لن نسلم أحداً. ولن نستسلم. عادل... جهز كل مسارات الهروب الممكنة نحو حزام النيزك القريب، حتى لو كانت احتمالات النجاح منخفضة. حسني... راقب أي ثغرة في تشويشهم. زارا... أريد منك كل حساب ممكن عن نقاط ضعفهم الحركية. الآن.

زارا رفع عينيه ونظر إلى شوقي نظرة طويلة جديدة، فيها شيء يشبه الاعتراف.

- أنت ترفض تسليمي رغم أن ذلك قد ينقذ سفينتك وطاقمك.

شوقي رد دون أن يبتسم:

- أنا لا أحب أن يُفرض عليّ شيء. لا من المريخ... ولا من الأرض. وأنت الآن على سفينتي. هذا يكفي.

على الشاشة كانت سفينة القيادة المريخية تقترب أكثر، وأضواؤها الجانبية تبدو كعيون مفتوحة في الظلام.

والوقت كان ينفد.

****الفصل الخامس****

****الإنذار والمطالبة****

اكتشفوهم في الدقيقة الثانية والثلاثين.

عادل كان أول من شعر بالنبضة. الشاشات التي كانت هادئة فجأة امتلأت بإشارات مسح قوية موجهة مباشرة نحوهم. لم يعد هناك مجال للشك.

- مسح فعال مركّز - قال بصوتٍ مبجوح. - ثلاثة مصادر... والسفينة الكبيرة أيضاً. عرفوا موقعنا.

قبل أن يرد شوقي، فتحت قناة لاسلكية عريضة على كل الترددات. الصوت الذي خرج منها كان واضحاً، بارداً، ويتحدث بالعربية الفصحى بطلاقة غريبة على لسان مريخي:

- السفينة الأرضية من طراز كشافة. هنا القائد شاسا، قائد الأسطول المريخي في هذا القطاع. نعرف أن المنشق زارا على متنكم. نطالب بتسليمه فوراً وغير مشروط. لديكم أربع دقائق للرد قبل أن نفتح النار.

الصوت انقطع. الصمت الذي تلاه كان أثقل من أي صوت.

شوقي نظر إلى زارا. الرجل المريخي كان جالساً بلا حركة، عيناه سوداوان ثابتتان على الشاشة التي تعرض صورة سفينة «القبضة الحمراء» وهي تتقدم الآن بسرعة أكبر.

حسني همس:

- الرد؟

شوقي رفع يده وأشار إليه بالانتظار. ثم ضغط على زر القناة المفتوحة بنفسه.

- هنا الكابتن شوقي، قائد السفينة «النسر». زارا موجود على سفينتي تحت حماية رسمية من القيادة الأرضية. لن يتم تسليمه. أي اعتداء على سفينتي سيُعتبر عملاً حربياً مكشوفاً.

الرد جاء أسرع مما توقعوا.

- الكابتن شوقي - صوت شاسا هذه المرة كان أقرب، كأن الرجل يتحدث من غرفة مجاورة. - أنت تعرف جيداً أن الحرب غير معلنة رسمياً بعد. لكنك أيضاً تعرف أنني لن أسمح لهذا الخائن أن يصل إلى الأرض حياً. سلمه، وأنا أضمن لك ولطاقمك مروراً آمناً إلى أي قطاع تريد. ارفض... وسأحول سفينتك الصغيرة إلى غبار في أقل من دقيقة.

عادل كان يراقب المسافات.

- السفن الثلاث أغلقت المثلث حولنا. «القبضة الحمراء» على بعد أحد عشر ألف كيلومتر وتغلق المسافة بسرعة.

زارا تحدث فجأة، صوته هادئ جداً:

- اسمح لي أن أرد عليه.

شوقي نظر إليه ثانية واحدة، ثم أوماً.

زارا اقترب من الميكروفون.

- شاسا. أنا زارا. أعرف لماذا تريدني ميتاً. أنت خائف أن يسمع شعبنا الأرقام التي أحملها. خائف أن يكتشفوا أن الحرب التي تدفعهم إليها ليست حتمية. إذا قتلتنني اليوم، فأنت لا تحمي المريخ... أنت تحمي خوفك فقط.

صمت قصير على الطرف الآخر. ثم جاء صوت شاسا أبرد من السابق:

- ما زلت تتكلم كفيلسوف يا زارا. الفلسفة لا تحمي السفن. الكابتن شوقي... الدقيقة الأخيرة بدأت. سلم الخائن أو مت معه.

شوقي أغلق القناة بيده.

التفت إلى طاقمه. عادل كان ينتظر الأمر، وجهه شاحب لكن يدها ثابتان على اللوحة. حسني كان قد جهز بالفعل كل أنظمة التشويش المتاحة. زارا عاد خطوة إلى الخلف، كأنه يسلم القرار بالكامل.

شوقي أخذ نفساً عميقاً مرة واحدة.

- لن نسلمه - قال بصوت واضح. - عادل، جهز المناورة التي تحدثنا عنها في السابق. التراجع السريع ثم الاندفاع بزاوية غير متوقعة. حسني، عندما أقول لك... املاً كل الترددات بتشويش كثيف. زارا... إذا كانت لديك حسابات عن نقطة ضعف في تشكيلهم الحالي، أريدها في الثلاثين ثانية القادمة.

زارا أغمض عينيه لحظة، ثم فتحها.

السفن الثلاث الأمامية تعتمد على التنسيق المركزي من «القبضة الحمراء». إذا أحدثتم اضطراباً مفاجئاً في التوقيت... قد تت `<object>` لجزء من الثانية. هذا كل ما أستطيع أن أعطيه الآن.

شوقي أوماً.

على الشاشة كانت النيران الأولى قد بدأت تُجهز على السفن المريخية. أضواء الطاقة تتجمع في مقدمتها.

شوقي وضع يده على عصا التحكم الرئيسية ونظر إلى رجاله مرة أخيرة.

- إذن...

نبدأ.

****الفصل السادس****

****الرفض والمواجهة الأولى****

الضربة الأولى جاءت قبل أن تنتهي الثانية الأخيرة.

ثلاث ومضات طاقة حمراء قاتمة انطلقت من السفن المريخية الأمامية في اللحظة نفسها. «النسر» ارتجت بعنف، والدروع الأمامية امتصت معظم الصدمة لكنها صرخت بأضواء حمراء على كل الشاشات.

- دروع أمامية انخفضت إلى اثنين وسبعين بالمئة! - صاح عادل.

شوقي لم ينتظر.

- الآن. تراجع كامل بقوة قصوى. زاوية مئة وثلاثين درجة.

السفينة قفزت إلى الخلف كأنها ارتطمت بجدار غير مرئي. النجوم في النافذة صارت خطوطاً مائلة طويلة. القذائف التالية مرت من المكان الذي كانت فيه «النسر» قبل أقل من ثانية.

حسني كان يملأ كل الترددات بتشويش كثيف مكسور، أصوات وطنين وتموجات تجعل أي تنسيق دقيق بين السفن المريخية أصعب. زارا وقف خلف عادل مباشرة، عيناه لا تفارقان القراءات، ويهمس بأرقام سريعة:

- السفينة اليسرى أبطأ بنقطة سبع من الثانية... اليمنى تعتمد على إشارة القيادة أكثر من اللازم...

شوقي سمع كل كلمة. عندما وصلوا إلى النقطة التي حسبها زارا مسبقاً، قلب المناورة فجأة.

- اندفاع. الآن. أقصى قوة. اتجاه السفينة الوسطى.

«النسر» انطلقت إلى الأمام كرمح أسود. التسارع سحقهم في مقاعدهم. عادل أطلق قذيفتين سريعتين من الطاقة المركزة نحو السفينة المريخية الوسطى في اللحظة التي كانت تصح فيها مسارها. الضربة أصابتها في الجانب الخلفي. انفجار صامت أزرق، والسفينة المريخية فقدت توازنها ودارت حول نفسها بعنف.

- إصابة مباشرة! - صاح عادل.

لكن الفرحة لم تدم.

سفينة «القبضة الحمراء» ردت فوراً. شعاع ثقيل جداً انطلق من مقدمتها وضرب «النسر» في الخاصرة. الغرفة اهتزت كأن يدًا عملاقة صفعتها. الأضواء انطفأت ثانية كاملة ثم عادت حمراء طارئة. رائحة Circuiter محترقة ملأت الهواء.

- دروع جانبية أربعة وأربعون بالمئة! تسرب في القطاع الثالث! - صوت عادل كان مشدوداً هذه المرة.

شوقي أصلح المسار بعنف.

- حسني، زد التشويش. عادل... أطلق كل ما تبقى من القذائف الخفيفة باتجاه السفينتين الآخرين. لا تهدف للإصابة، فقط أجبرهما على الانحراف.

الفضاء حولهم صار شبكة من خطوط الطاقة الحمراء والزرقاء. «النسر» كانت تتحرك كحشرة سريعة بين قبضات كبيرة. كل مناورة كانت تأخذهم أقرب إلى الموت بسننيمترات.

زارا فجأة وضع يده على كتف عادل.

- هناك ثغرة. السفن الثلاث تحاول إعادة تشكيل المثلث بينما «القبضة الحمراء» تتقدم لتسد المسار الأمامي. إذا اندفعنا الآن بزاوية اثنين وثلاثين درجة نحو الأسفل النسبي... سنمر قرب السفينة اليمنى بمسافة خطر، لكننا سنخرج من الشبكة لثمانية ثوانٍ.

شوقي لم يتردد.

- نفذ.

السفينة انحرفت بحدة جنونية. جاذبية الاصطناعية صرخت، وأجسادهم سُحبت إلى الجانب. واحدة من القذائف المريخية مرت قريباً جداً حتى إن الدروع الخارجية سخنت وصارت توهج على الشاشة. لكنهم مروا.

ثمانى ثوانٍ من الفراغ النسبي.

فى تلك الثوانى رأى شوقى على الشاشة البعيدة شيئاً آخر: بقية الأسطول المريخى بدأت تتحرك نحوهم. المعركة الصغيرة صارت تتحول إلى مطاردة واسعة.

حسنى صاح:

- رسالة جديدة من شاسا على كل القنوات.

الصوت ملأ الغرفة دون إذن:

- أحسنت المناورة يا كابتن شوقى. لكنك فقط تطيل الموت. سلم زارا الآن، وأنا أوقف كل شيء. ارفض... وسأطلب تعزيزات إضافية. لن تخرج من هذا القطاع حياً.

شوقى أغلق الصوت بقيضة غاضبة.

نظر إلى زارا. الرجل المريخى كان شاحباً، لكن عينيه لم تنزل تحسبان.

- ما زلت ترفض تسليمي - قال زارا بصوتٍ خافت جداً لا يسمعه إلا شوقى.

شوقى أعاد يديه إلى عصا التحكم، والسفينة ما زالت تندفع بسرعة مجنونة نحو المجهول.

- أنا لا أسلم أحداً من على سفينتي - أجاب. - والآن... إذا كان لديك حساب آخر ينقذنا، فقله. لأن الجولة القادمة لن تكون أسهل.

على الشاشة كانت أضواء «القبضة الحمراء» تقترب أكثر فأكثر، كعينين مفتوحتين في الظلام لا ترضى أن تغمض.

****الفصل السابع****

****حسابات زارا والخطبة اليائسة****

الطاردة صارت جهنمية.

ثلاث سفن مريخية ما زالت تلاحقهم عن قرب، و«القبضة الحمراء» تتقدم من الخلف كطلّ لا يُفلت. كل بضعة ثوانٍ كانت قذيفة جديدة تمر قريباً أو تضرب الدروع فتتهتز السفينة كلها. الأضواء الحمراء صارت الحالة الطبيعية في غرفة القيادة. رائحة الاحتراق الخفيفة لم تختف.

عادل كان يصرخ بالقراءات دون توقف:

- دروع أمامية تسعة وعشرون بالمئة... الجانبية اثنان وعشرون... المحرك الأيمن يعمل بطاقة سبعة وستون بالمئة فقط!

شوقي كان يقود بيديه الاثنتين، يحرك السفينة في مناورات حادة قصيرة تُرهق الجسد والأعصاب. حسني يملأ الفضاء حولهم بتشويش كثيف متقطع، يقطع وينقل بين الترددات كمن يقاتل بأظافره.

وفي وسط كل هذا كان زارا واقفاً أمام لوحة جانبية، عيناه تتحركان بسرعة بين الأرقام والمسارات، شفتاه تهمسان حسابات لا يسمعها أحد بوضوح.

فجأة رفع رأسه.

- كابتن.

شوقي لم يلتفت. قذيفة جديدة ارتطمت بالدروع الخلفية فدفعت السفينة إلى الأمام بعنف.

- تكلم وأنت تحسب - قال شوقي بين أسنانه.

زارا اقترب خطوة، صوته كان هادئاً بشكلٍ غريب وسط الفوضى:

- حزام النيزك القريب. على بعد أربعة عشر ألف كيلومتر أمامنا بزاوية منخفضة. كثافته متوسطة إلى عالية، وسرعات الأجسام داخله غير منتظمة. شاسا لن يدخل بأسطوله كله إلى هناك لأنه يخاف من فقدان التنسيق.

شوقي انحرف بالسفينة تفادياً لشعاع جديد.

- وكيف يساعدنا ذلك؟ سندخل ونموت بين الصخور بدلاً من قذائفهم؟

- لا - أجاب زارا. - أنتم تدخلون. هم يتبعونكم لأنهم يريدونني. لكنني أعرف كيف أجعل الحزام نفسه يقاتل معهم. إذا دخلنا بزاوية محددة، وسرعة محددة، ثم أطلقنا سلسلة من الانفجارات الصغيرة المحسوبة في نقاط معينة... يمكننا تحويل مسارات عشرات النيزك الكبيرة لتتصاعد في لحظة واحدة نحو التشكيل المريخي.

عادل التفت للحظة، عيناه واسعتان:

- تحريك نيزك؟ هذا يحتاج إلى قوة نارية هائلة ودقة مستحيلة!

- ليس تحريكاً كاملاً - قال زارا بسرعة. - فقط تعديل طفيف في المسار. النيزك في هذا الحزام قريب من نقاط التوازن غير المستقرة. دفعة صغيرة محسوبة في اللحظة الصحيحة تُحدث تغييراً كبيراً بعد ثوانٍ. أعرف المعادلات. حسبته مرات كثيرة عندما كنت أدرس احتمالات الدفاع عن المريخ... ضدكم.

شوقي صمت ثابتيين كاملتين بينما السفينة تهتز من ضربة جديدة.

- احتمالات النجاح؟

زارا لم يكذب.

- أقل من أربعين بالمئة. وإذا أخطأنا في التوقيت... سنكون نحن من يُسحق داخل الحزام.

حسني تدخل بصوتٍ خشن:

- والبديل؟ نستمر في الهرب حتى تنفذ الدروع أو الوقود أو الحظ؟

شوقي نظر إلى الشاشة. «القيضة الحمراء» كانت قد اقتربت أكثر. السفن الثلاث الأخرى تضغط من الجوانب. الدروع لن تصمد طويلاً في قتال مفتوح.

التفت إلى زارا. الرجل المريخي كان ينتظر، وجهه جامد لكن عينيه تحملان شيئاً يشبه الاعتذار المسبق.

- حسناً - قال شوقي أخيراً. - الخطة اليائسة مقبولة. عادل... غيّر المسار نحو حزام النيزك بأقصى سرعة ممكنة. حسني، أبقِ التشويش مركزاً على قنوات تنسيقهم. زارا... أعطني الزوايا والسرعات والانفجارات المطلوبة الآن.

زارا أخذ نفساً عميقاً مرة واحدة، ثم بدأ يملأ أرقاماً بسرعة ووضوح:

- زاوية الدخول سبعة عشر درجة تحت المستوى الحالي... السرعة النسبية عند الدخول يجب أن تكون كذا... الانفجار الأول بعد ثماني عشرة ثانية من الدخول في النقطة التي سأحددها... ثم الثاني والثالث بفارق ثلاث ثوانٍ وسبع ثوانٍ...

شوقي كان ينفذ الأوامر بينما يسمع. السفينة انحرفت بحدة نحو الحزام الذي يظهر الآن على الشاشة كسحابة رمادية مبعثرة من الصخور والظلال.

خلفهم كانت السفن المريخية تتردد لحظة قصيرة... ثم تنطلق في المطاردة.

شاسا نفسه جاء صوته عبر القنوات المشوشة، مقطوعاً وغاصباً:

- إلى أين تهرب يا شوقي؟ الحزام لن يحميك...

شوقي أغلق الصوت ونظر إلى الأمام.

الحزام كان يقترب بسرعة مجنونة. والصخور الكبيرة بدأت تظهر كأَسنانٍ سوداء في الظلام.

- استعدوا - قال شوقي بصوتٍ منخفض. - إما أن تنجح حسابات زارا...
أو نموت جميعاً بضربة واحدة من نوع آخر.

السفينة اندفعت إلى داخل العاصفة النيزكية.

****الفصل الثامن****

****المناورة****

الدخول إلى حزام النيزك كان كالغوص في فمٍ مليء بالأسنان.

الصخور كانت تأتي من كل اتجاه: بعضها صغير وسريع كالرصاص، وبعضها كبير وبطيء يسد الأفق كله. «النسر» كانت ترتجف دون توقف. الدروع تصرخ بأصواء حمراء متصلة، وعادل يعلن النسب المتناقصة كل بضعة ثوانٍ.

- دروع أمامية ثمانية عشر بالمئة... اصطدامات دقيقة متعددة... المحرك الأيسر ارتفعت حرارته فوق الحد!

شوقي كان يقود بيد واحدة تقريباً، واليد الأخرى تضغط أوامر التصحيح المستمرة. حسني توقف عن التشويش الواسع وصار يركز على إبقاء القنوات الحرجة مفتوحة بينهم فقط. زارا وقف خلف مقعد عادل مباشرة، عيناه لا تفارقان الشاشة الجانبية التي تعرض مسارات النيزك المحسوبة، ويصحح الأرقام كل ثانية.

- الآن - قال زارا فجأة. - التراجع النسبي. خفف السرعة بنسبة أربعين بالمئة... زاوية مائلة إلى اليمين.

شوقي نفذ دون سؤال. السفينة كبحت بعنف، فاندفعوا جميعاً إلى الأمام ضد الأحزمة. خلفهم جاءت السفن المريخية الثلاث مندفعة بأقصى سرعة، معتقدة أن «النسر» أصيبت أو فقدت القدرة.

- اندفع! - صاح زارا. - الآن... أقصى قوة، زاوية اثنين وأربعين درجة لأسفل النسبي!

شوقي دفع العصا إلى الأمام بكل وزنه. «النسر» انطلقت كرمحٍ مجنون عبر فجوة ضيقة بين صخرتين كبيرتين. السفن المريخية حاولت التصحيح فوراً، لكن اثنتين منها ارتطمتا بصخور جانبية بقوة. انفجاران صامتان أزرقان، وحطام معدني اختلط بالنيزك.

- اثنتان تضررتا! - صاح عادل. - الثالثة ما زالت تلاحق... و«القبضة الحمراء» دخلت الحزام أيضاً!

شاسا لم يتراجع. سفينته الضخمة كانت تشق طريقها داخل الحزام بثقة غاضبة، تدمر الصخور الصغيرة بدروعها القوية وتتقدم كوحشٍ أسود.

زارا كان يملئ بسرعة مجنونة:

- الانفجار الأول بعد سبع ثوانٍ... النقطة التي أمامنا بمسافة تسعمائة متر، النيزك الكبير ذو الدوران البطيء... اضربه في الجانب الخلفي الأيسر بثلاث قذائف متزامنة.

شوقي انتظر حتى اللحظة الأخيرة.

- الآن يا عادل!

ثلاث قذائف انطلقت. أصابت النيزك الكبير في النقطة المحددة. الصخرة الهائلة مالت ببطء في البداية، ثم بدأت تتحول في مسارها كأنها استيقظت فجأة. خلفها تحركت صخور أصغر بفعلها، سلسلة من الاضطرابات التي حسبها زارا مسبقاً.

- الثاني... الآن!

ضربة أخرى في نيزك متوسط كان يمر فوقهم. المسار تغير. الصخور بدأت تتقارب من اتجاهات مختلفة نحو النقطة التي كانت السفن المريخية تشغلها.

حسني صاح محذراً:

- «القبضة الحمراء» تطلق علينا مباشرة!

شعاع ثقيل مرّ قريباً جداً من جناحهم الأيمن. الدروع صرخت وانخفضت إلى أحد عشر بالمئة. رائحة الدخان صارت أقوى.

شوقي انحرف بعنف وكاد يصطدم بصخرة سوداء ضخمة. زارا لم يرفع صوته، لكنه قال بسرعة:

- الأخيرة... النيزك الطويل هناك. اضربه في الطرف الأمامي. إذا نجح الحساب... ستلتقي كل المسارات المعدلة بعد اثنتي عشرة ثانية في نقطة واحدة.

شوقي نظر إلى الشاشة. السفن المريخية الثلاث المتبقية و«القبضة الحمراء» كانت كلها داخل دائرة القتل المحتملة. إذا نجحت المناورة... فستكون الضربة واحدة وشاملة. وإذا فشلت... فسيكونون هم من يُسحق أولاً.

- نفذ - قال شوقي.

القذائف الأخيرة انطلقت. أصابت هدفها. النيزك الطويل بدأ دورانه الجديد البطيء ثم المتسارع.

الآن لم يعد هناك شيء يفعلونه سوى الانتظار والمناورة للبقاء أحياء داخل العاصفة.

شوقي نظر إلى زارا لجزء من الثانية. الرجل المريخي كان يحدق في الشاشة، وجهه جامد تماماً، كأنه يرى المعادلات تتحقق أو تنهار أمام عينيه.

خلفهم وأمامهم وحولهم كانت الصخور تتحرك في مسارات جديدة حسبها عقل واحد يائس.

والثواني الاثنتا عشرة بدأت العدّ.

****الفصل التاسع****

****العاصفة****

الثواني الاثنتا عشرة كانت أطول من عمر السفينة كلها.

داخل غرفة القيادة لم يتكلم أحد. فقط أصوات الأجهزة المنذرة، وصرير الهيكل المعدني، وضربات النيزك الصغيرة التي <object> الدروع كالمطر المعدني. شوقي كان يحرك السفينة في مساحات ضيقة مستحيلة، عادل يعلن النسب المتبقية بصوتٍ مبجوح، حسني يمسك بحافة مقعده حتى ابيضت أصابعه، وزارا يحدق في الشاشة كأنه يرى الأرقام تتحرك في الفراغ الحقيقي.

ثم بدأت الصخور تصل.

النيزك الكبير الذي ضرب أولاً جاء من الأعلى النسبي كجيلٍ أسود متحرك. السفينة المريخية الأقرب حاولت الانحراف، لكن الثانية جاءت من الجانب في اللحظة نفسها. الاصطدام كان صامتاً ووحشياً. السفينة المريخية انطوت على نفسها كعلبة معدنية تحت قدم عملاق، ثم انفجرت في ومضة بيضاء قصيرة ابتلعها الغبار والصخور فوراً.

الثانية لم تُمهّل.

سلسلة النيزك المعدلة حسب حسابات زارا وصلت دفعة واحدة من ثلاثة اتجاهات. سفيتان مريختان حاولتا الهروب إلى أعلى، فاصطدمتا ببعضهما تحت ضغط الصخور القادمة. الثالثة حاولت التراجع فوجدت مسارها مسدوداً بنيزك طويل كان يدور الآن كشفرة عملاقة. الانفجارات صارت متتالية، صامته، ومروعة. الحطام اختلط بالصخر، والنار ماتت بسرعة في الفراغ لكن الضوء بقي لثوانٍ كجرحٍ مفتوح.

- ثلاثة... أربعة... - كان عادل يعدّ بصوتٍ خافت كأنه لا يصدق.

ثم جاءت اللحظة الأخطر.

سفينة «القبضة الحمراء» كانت أضخم وأقوى. دروعها صدت الاصطدامات الأولى، وحطمت عدداً من الصخور بمدافعها، وحاولت شق طريقها للخروج من الدائرة. للحظة بدا أنها ستنجح.

زارا قال فجأة بصوتٍ مختلف، فيه شيء من الألم:

- الآن... النيزك الأخير. الكبير جداً. هو قادم من خلفها.

الصخرة الهائلة التي حركوها في آخر ضربة كانت أبطأ من البقية، لكنها كانت الأكبر. جاءت كظلٍّ يملأ نصف الشاشة. «القبضة الحمراء» حاولت الالتفاف، أطلقت كل ما لديها، حطمت الطرف الأمامي من الصخرة... لكن الكتلة المتبقية كانت كافية.

الاصطدام كان جانبياً هذه المرة. سفينة القيادة المريخية دارت حول نفسها بعنف غير طبيعي، انفجرت منها أجزاء كاملة، وأضواءها تطايرت كشرر يائس. ثم ضربتها صخرتان أصغر في الوقت نفسه. السفينة العملاقة تهشمت على مراحل، كأنها تُقتل ببطء أمام أعينهم، حتى صارت كتلة معدنية ميتة تدور وسط الحطام.

الصمت الذي سقط بعدها كان مخيفاً.

لا شيء يتحرك سوى الصخور التي استمرت في مساراتها الجديدة العشوائية، والحطام الذي يتصادم مع بعضه في رقصة موت بطيئة.

عادل همس، صوته مكسور:

- معظم الأسطول... انتهى. «القبضة الحمراء»... دُمرت.

شوقي لم يرد. كان ما زال يحرك السفينة برفق بين البقايا، يبحث عن مخرج. الدروع كانت عند أربعة بالمئة. المحرك الأيمن يعمل بالكاد. الهواء داخل الغرفة صار ثقيلًا وساخنًا.

حسني نظر إلى الشاشات كمن يرى شبحاً.

- بضربة واحدة... كما قلت يا زارا.

زارا لم يفرح. كان يحدق في مكان انفجار سفينة القيادة، وجهه شاحب جداً تحت الأضواء الحمراء الطارئة. عندما تكلم جاء صوته منخفضاً وبعيداً:

- شاسا كان على متنها. أعرف ذلك. هو لا يترك سفينته في لحظة كهذه.

شوقي أخيراً وجد فجوة واسعة نسبياً بين الصخور واندفع نحوها. «النسر» خرجت من الحزام وهي ترتجف كجسدٍ منهك. خلفهم كانت العاصفة ما زالت تبتلع بقايا الأسطول المريخي في صمتٍ أسود.

لا أحد في غرفة القيادة ابتسم.

النصر كان كبيراً جداً...

وأسود جداً...

وحدث بضربة واحدة فقط.

****الفصل العاشر****

****الخسائر والثمن****

الخروج من حزام النيزك لم يكن نهاية الخطر، بل بداية حساب الثمن.

«النسر» كانت تترنج في الفراغ كجسم طعين. الدروع عند ثلاثة بالمئة، والمحرك الأيمن يعمل بطاقة منخفضة جداً ويصدر اهتزازاً مستمراً يُشعر به الجميع في عظامهم. الهواء داخل السفينة صار حاراً وثقيل الرائحة، مزيجاً من الدخان الخفيف والعرق والمعدن المحترق.

عادل كان أول من تحرك بعد الصمت الطويل. أصابعه ارتجفت وهو يعيد تشغيل أنظمة التشخيص.

- الهيكل في القطاع الثالث متضرر بشدة... تسرب بطيء في الخزانات الخلفية... نظام التبريد الاحتياطي يعمل بالحد الأدنى. إذا لم نتوقف قريباً لإصلاحات طارئة... قد نفقد المحرك الأيمن بالكامل خلال ساعتين.

شوقي لم يرد فوراً. كان ما زال يمسك عصا التحكم، عيناه على الشاشات التي تعرض الحطام البعيد وهو يتبعثر داخل العاصفة. بقايا سفن، قطع معدنية تدور، وصخور ما زالت تتصادم مع بعضها كأنها تكمل المهمة وحدها.

حسني رفع رأسه من أجهزة الاتصالات، صوته أجش:

- لا إشارات نجاة مريخية واضحة. أي شيء نجا من ذلك... إما ميت أو صامت تماماً.

زارا كان جالساً الآن. لم يعد واقفاً خلف عادل. يداها مضمومتان على ركبتيه، وعيناه تنظران إلى نقطة بعيدة داخل نفسه. عندما تكلم جاء صوته منخفضاً جداً:

- عدد السفن التي دُمرت... تسع على الأقل، بينها سفينة القيادة. مئات الضباط والجنود. كلهم ماتوا بسبب حساباتي.

شوقي التفت إليه أخيراً.

- ماتوا لأن شاسا رفض أي خيار آخر. وأنت أعطيتنا فرصة للبقاء. هذا كل شيء.

زارا هز رأسه ببطء.

- أنت تعرف أن الأمر ليس بهذه البساطة يا كابتن. أنا لم أقتلهم بيدي... لكن المعادلات كانت ملكي. والزاوية التي دخلنا بها كانت ملكي. والنتيجة... هذه النتيجة كانت ملكي أيضاً.

الصمت عاد يثقل الغرفة. عادل توقف عن العمل لحظة ونظر إلى زارا، ثم إلى شوقي، ثم عاد إلى شاشاته كمن يختبئ. حسني أخرج من جيبتة قطعة قماش صغيرة ومسح وجهه من العرق والسواد، دون أن ينطق.

شوقي أخيراً ترك عصا التحكم بعد أن ضبط السفينة على مسارٍ ثابت بعيد عن الحزام.

- استمعوا جميعاً. نحن لم نتصر في حرب. نحن نجونا من موت محقق، ودمرنا قوة كانت تريد قتلنا. هذا كل ما حدث هنا. أما الحسابات الأخلاقية... فنؤجلها إلى أن نضمن أن السفينة لن تنفجر بنا في الطريق.

نظر إلى عادل.

- ابحث عن أقرب نقطة آمنة نسبياً يمكننا التوقف فيها لإصلاحات طارئة. حتى لو كانت مجرد ظل كويكب كبير.

ثم التفت إلى حسني.

- أرسل رسالة مشفرة قصيرة جداً إلى القيادة الأرضية. قل لهم: المهمة نجحت. الهدف معنا. تعرضنا لمواجهة. نحتاج دعمًا أو نقطة التقاء آمنة. لا تفاصيل أكثر.

حسني أوماً وبدأ العمل فوراً.

زارا رفع عينيه ونظر إلى شوقي عبر الغرفة.

- عندما تصل الأخبار إلى المريخ... سيعتبرون هذا ليس دفاعاً عن النفس، بل مجزرة. وسيضعون اسمك واسمي على رأس قائمة الأهداف إلى الأبد.

شوقي رد بصوتٍ هادئ متعب:

- كنتُ على رأس قائمتهم منذ اللحظة التي رفضت فيها تسليمك. الفرق الوحيد الآن أن القائمة صارت أقصر... لأن معظم من كانوا عليها ماتوا داخل تلك العاصفة.

لم يقل أحد شيئاً بعد ذلك.

السفينة واصلت طريقها البطيء المرتجف عبر الفراغ الأسود. خلفهم كان حزام النيزك ما زال يدور ببطء، يتلغ آخر الأدلة على ما حدث. وأمامهم كان الطريق إلى الأرض طويلاً وخطراً ومجهولاً.

النصر تحقق بضربة واحدة.

لكن الثمن... كان قد بدأ للتو في الظهور.

****الفصل الحادي عشر****

****العودة****

استغرقت الرحلة المتبقية نحو القطاع الآمن أحد عشر يوماً.

أحد عشر يوماً من الصمت الثقيل والإصلاحات المتكررة والنوم المتقطع. «النسر» كانت تسير كجندي جريح: المحرك الأيمن يعمل بنصف طاقته، والهيكل يصدر صريراً خفيفاً في كل مرة يغيرون فيها الاتجاه، والدروع لم تعد تصلح لأكثر من صدّ الغبار الكوني.

عادل قضى معظم وقته بين المحركات والأنظمة، ينام ساعتين هنا وثلاث ساعات هناك. حسني راقب الطيف اللاسلكي كمن ينتظر خبر موت أو خبر نجاة. أما زارا فقد انسحب إلى الزاوية الخلفية من غرفة المعيشة الصغيرة، يقضي الساعات الطويلة جالساً أو كاتباً على لوحة شخصية، نادراً ما يرفع رأسه.

شوقي كان الوحيد الذي حافظ على الروتين العسكري الصارم. نوبات المراقبة، التمارين القصيرة، الوجبات في مواعيدها. لكنه كان يعرف أن الجميع يلاحظون ما يحاول إخفاءه: أنه يفكر كثيراً في ما حدث داخل الحزام، وفي الأرقام التي قالها زارا، وفي الوجه الذي لم يروه لشاسا وهو يموت.

في اليوم السادس وصلت الرسالة الأولى من القيادة الأرضية.

حسني فكّ تشفيرها ونقلها بصوتٍ محايد:

«المهمة تُعتبر ناجحة استراتيجياً. تدمير القوة المريخية في القطاع يُسجل كنصر كبير. حافظوا على الهدف حياً وبصحة جيدة. نقطة الالتقاء الجديدة: محطة أورانوس المتقدمة. لا تتوقفوا في أي ميناء وسيط. تعليمات إضافية عند الوصول.»

لا سؤال عن الخسائر. لا تعليق على عدد الموتى. فقط «نصر كبير».

شوقي قرأ الرسالة مرتين، ثم أغلقها دون تعليق. زارا الذي كان يسمع من الخلف قال بصوتٍ خافت:

- هم يرون الأرقام فقط. تسع سفن مقابل سفينة كشافة واحدة ومنشق. في نظرهم هذه صفقة رابحة.

شوقي التفت إليه.

- وأنت؟ كيف تراها الآن بعد أحد عشر يوماً؟

زارا صمت طويلاً قبل أن يجيب.

- أنا أرى الوجوه التي لم أرها. أعرف أسماء بعض الضباط الذين كانوا على «القبضة الحمراء». درست مع بعضهم. شاسا نفسه... كان صديقي مرة. الآن أنا الرجل الذي حسب الزاوية التي قتلتهم. والسلام الذي أحمل معادلته صار ملطخاً بدم أكثر مما لطخته أي معركة سابقة.

عادل الذي كان يمر في الممر توقف لحظة، ثم قال دون أن ينظر إليهم:

- لو لم تحسب تلك الزوايا لكنا نحن الآن حطاماً بين الصخور. هذا أيضاً رقم.

ثم أكمل طريقه نحو المحركات.

في اليوم التاسع بدأت الإشارات غير الرسمية تصل. حسني التقط أجزاء من بث مريخي مشوش: خطابات غاضبة، اتهامات بـ«مجزرة النيزك»، وصور محررة

لـ«النسر» تُعرض كسفينة قتلة. اسم شوقي واسم زارا يُذكران معاً كعدوين لدودين للشعب المريخي. مكافآت جديدة رُصدت لرأسهما.

في اليوم الحادي عشر ظهرت محطة أورانوس المتقدمة على الشاشات كنقطة ضوء باردة وبعيدة.

شوقي جمعهم في غرفة القيادة قبل الاتصال النهائي.

- عندما نصل، سيأخذون زارا إلى جهة لا نعرفها. وسيأخذون تقاربنا، وسيحولون ما حدث إلى قصة نصر نظيفة في نشراتهم. كل واحد منكم سيُطلب منه أن يوقع على روايته الرسمية. أريدكم أن تعرفوا شيئاً واحداً قبل أن نصل: ما حدث داخل الحزام حدث لأننا اخترنا أن نبقي أحياء، ولأننا رفضنا أن نسلم رجلاً كان على سفيتنا. هذا كل ما أملك أن أقوله دفاعاً عنا.

نظر إلى زارا آخر مرة قبل أن يفتح قناة الاتصال مع المحطة.

- وأنت... هل ما زلت تؤمن أن السلام ممكن بعد كل هذا؟

زارا نظر إلى الشاشة التي تعرض المحطة البعيدة، ثم إلى الفراغ الأسود خلفها.

- أنا لا أعرف إن كان ممكناً - أجب بصوتٍ هادئ متعب. - لكنني أعرف أنه صار أصعب. وأن الثمن الذي دفعناه اليوم... سيجعل أي حديث عن السلام في المستقبل يبدو ككذبة في آذان الكثيرين.

شوقي أوماً ببطء، ثم ضغط على زر الاتصال.

- محطة أورانوس، هنا السفينة «النسر». نطلب إذن اقتراب وهبوط طارئ. لدينا الهدف... ولدنا جرحى في الهيكل والروح.

الرسالة انطلقت نحو الضوء البعيد.

وخلفهم، في مكان ما في الفراغ بين الصخور والحطام، كانت بقايا أسطول كامل ما زالت تدور في صمتٍ أبدي...

تذكرة بأن الضربة الواحدة التي تنقذ قوماً
قد تقتل فكرةً في الوقت نفسه.

****الفصل الثاني عشر****

****النتائج****

محطة أورانوس المتقدمة كانت بيضاء ونظيفة وباردة كضميرٍ رسمي.

عندما رست «النسر» داخل الحظيرة المخصصة، كان في استقبالهم ضابطان من المخابرات العسكرية وطبية وفريق فني. لم يسأل أحد عن التفاصيل فوراً. أخذوا زارا أولاً، ب □□ حازم، إلى جناح معزول «للفحص الطبي والأمني». شوقي وعادل وحسني اقتيدوا إلى غرف منفصلة لتقديم التقارير الأولية.

التقرير الرسمي الذي طُلب من شوقي كان واضحاً في صيغته:

«تعرضت السفينة لهجوم غير مبرر من قوة مريخية متفوقة. تم استخدام البيئة الفضائية المحيطة (حزام نيزكي) كعنصر دفاعي مشروع. النتيجة: تدمير القوة المهاجمة والحفاظ على الهدف الاستراتيجي.»

لا ذكر لعدد الموتى بالتفصيل. لا ذكر للحسابات الدقيقة التي حولت الصخور إلى سلاح. لا ذكر لاسم شاسا إلا في ملحق سري.

بعد ست ساعات استُدعي شوقي إلى مكتب القائد الأعلى للمحطة.

القائد كان رجلاً في أوائل الستين، هادئ الوجه، يضع أمامه ملفاً رقيقاً.

- ما فعلتموه سيُسجل كنصر تكتيكي كبير - قال دون مقدمة. - دمرتم قوة كانت تهدد ثلاثة قطاعات. المريخ الآن في حالة ارتباك وغضب. هذا يمنحنا أفضلية تفاوضية... أو أفضلية عسكرية إذا فشلت المفاوضات.

شوقي ظل واقفاً.

- وزأرا؟

- زارا سُنقل إلى موقع آمن أكثر عمقاً داخل النظام الشمسي. أفكاره عن السلام... مفيدة كأداة ضغط، لكنها لن تُعلن كما هي. الرواية الرسمية تقول إنه عالم مريخي انشق احتجاجاً على عدوانية حكومته، وأنا نحميه لأسباب إنسانية واستراتيجية.

شوقي شعر بشيءٍ بارد يستقر في معدته.

- إذن السلام الذي كان يتحدث عنه سيُستخدم كسلاح إعلامي فقط.

القائد نظر إليه نظرة طويلة هادئة.

- أنت قائد ميداني ممتاز يا كابتن شوقي. لكن السياسة ليست ميداناً. ما حدث في حزام النيزك أعطانا ورقة قوية. لن نضعها في مناقشات فلسفية عن «السلام الحقيقي». أنت ورجالك ستمنحون ترقية واستراحة طويلة. أما التفاصيل غير المريحة... فستبقى داخل الملفات المغلقة.

في المساء سُمح لشوقي برؤية زارا لدقائق معدودة، تحت مراقبة.

زارا كان يجلس في غرفة بيضاء بلا نوافذ. بدا أصغر وأكثر إرهاقاً.

- هل قالوا لك الرواية؟ - سأل زارا مباشرة.

شوقي أوماً.

- نعم. أنت منشق إنساني. ونحن حماة الإنسانية. والمعركة كانت دفاعاً مشروعاً عن النفس.

زارا ابتسم ابتسامة صغيرة حزينة.

- والصخور التي حسبت مسارها؟ والضباط الذين ماتوا وهم يدورون في الفراغ؟ لن يظهروا في أي نشرة. فقط «نصر بضرية واحدة». عنوان جميل... وكاذب بما يكفي ليعمل.

صمت لحظة ثم رفع عينيه.

- أنا لن أتوقف عن قول ما أعرفه يا شوقي. حتى لو وضعوني في أجمل قفص. لكنني أعرف الآن أن المعادلات وحدها لا تكفي. السلام لا يولد من حسابات صحيحة... بل من استعداد الطرفين أن يدفعوا ثمناً أقل من الموت الجماعي. ونحن اليوم دفعنا ثمناً كبيراً جداً... وجعلنا الثمن القادم أكبر.

شوقي لم يجد ما يقوله فوراً. فقط مدّ يده وصافحه مرة واحدة قوية.

- كنتُ ضعيفاً على سفينتي. هذا لن يتغير في تقارير الشخصية.

زارا أمسك اليد لحظة أطول.

- وأنت كنت أول قائد أرضي يرفض تسليمي حتى عندما كان الموت أقرب من أي شيء آخر. هذا أيضاً لن أنساه.

انتهى اللقاء. أخذوا زارا في اليوم التالي إلى سفينة أخرى بلا اسم واضح على هيكلها. شوقي وقف خلف الزجاج السميك يراقبه وهو يغادر. لم يلتفت زارا إلى الوراء.

بعد أسبوع نُقل شوقي وعادل وحسني إلى مركبة نقل متجهة نحو الأرض. في الطريق سمعوا النشرات الرسمية: «انتصار كبير للقوات الأرضية في القطاع الخارجي... تدمير أسطول مريخي معتدٍ بضرية واحدة حاسمة... المنشق المريخي زارا يصل إلى مكان آمن».

الصور التي عُرضت كانت لـ«النسر» وهي تدخل المحطة، مأخوذة من زاوية تُخفي الضرر. لا صور للحطام. لا أسماء للقتلى المريخين. فقط عنوان نظيف وبراق.

في غرفته الصغيرة داخل مركبة النقل، جلس شوقي ينظر من النافذة إلى السواد اللانهائي. في مكان ما بعيد كانت بقايا سفينة «القبضة الحمراء» ما زالت تدور بين الصخور. وفي مكان آخر كان زارا يبدأ نوعاً جديداً من الأسر.

النصر تحقق.

الهدف وصل حياً.

والرواية الرسمية اكتملت.

لكن الثمن الحقيقي...

كان ما زال يمشي معهم في الصمت،

غير مكتوب في أي تقرير.

****الفصل الثالث عشر****

****بعد الضربة****

مرت سبعة أشهر.

شوقي كان يقف مرة أخرى أمام نافذة واسعة، لكن هذه المرة في محطة فضائية مدارية هادئة فوق الأرض. الزي الذي يرتديه صار يحمل رتبة أعلى، والمكتب الذي حُصص له أوسع وأنظف من أي غرفة قيادة جلس فيها من قبل. على الشاشة الجانبية كانت تعرض تقارير دورية عن «استقرار نسبي» في القطاعات الخارجية. المريخ لم يردّ بعد بضربة مماثلة. المفاوضات السرية بدأت ثم تعثرت ثم استؤنفت. لا أحد يتحدث عن سلام حقيقي. الجميع يتحدث عن «إدارة التوتر».

عادل رفض الترقية الأولى، ثم قبل الثانية بشرط أن يبقى في قسم المسح والتحليل بعيداً عن أي سفينة قتالية. حسني طلب نقلاً إلى وحدة اتصالات أرضية ثابتة، وقال في آخر لقاء جمعهم إن صوته لم يعد يصلح لنقل رسائل الموت عبر الفراغ.

أما زارا... فقد اختفى.

الرواية الرسمية استمرت شهوراً: العالم المريخي المنشق يعيش في مكان آمن، يتعاون مع العلماء الأرضيين، ويكتب عن ضرورة السلام. ثم صارت الأخبار عنه أقل فأقل. بعض التقارير غير الرسمية همست أنه رُحل إلى مستعمرة بحثية نائية في حزام

الكويكبات. تقارير أخرى قالت إنه رفض أن يُستخدم أكثر فتم عزله بهدوء. شوقي أرسل طلبات رسمية مرتين للسماح بلقائه. الطالبان رُفضا «لأسباب أمنية».

في إحدى الأمسيات وصلته رسالة مشفرة قصيرة جداً، لا تحمل توقيعاً واضحاً، عبر قناة قديمة كان حسني قد علمه إياها:

«ما زلت أحسب. لكن الأرقام صارت أثقل. لا تصدق كل ما يُقال عني. ولا تصدق أن الضربة الواحدة تنهي شيئاً. هي فقط تؤجل.»

لم يكن هناك المزيد.

شوقي حذف الرسالة بعد قراءتها مرتين، كما تقتضي الإجراءات. لكنه حفظ الجملة الأخيرة في مكان ما خلف عينيه.

في الليلة نفسها جلس وحيداً في مكتبه، وأمامه خريطة النظام الشمسي كما كانت في يوم المهمة. القطاع الذي حدثت فيه المعركة صار الآن يُسمى في بعض التقارير الداخلية «منطقة الحطام». لا أحد يرسل سفناً كثيرة إلى هناك. النيزك ما زال يدور، وبقايا السفن ما زالت تتنفس الغبار المعدني في صمت.

فتح درج مكتبه وأخرج شيئاً صغيراً كان قد احتفظ به ضد كل اللوائح: شريحة ذاكرة قديمة جداً، فيها التسجيل الخام غير المحرر ل لحظات الدخول إلى الحزام. لم يشغله. فقط أمسكه بين أصابعه لحظة طويلة.

تذكر صوت عادل وهو يعدّ السفن المنفجرة.

تذكر وجه زارا عندما قال إن شاسا كان صديقه مرة.

تذكر الصمت الذي ملأ «النسر» بعد أن توقفت الانفجارات.

ثم وضع الشريحة في الدرج وأغلقه.

خارج النافذة كانت الأرض تدور ببطء، زرقاء وبيضاء وهادئة من هذا الارتفاع. كأنها لا تعرف شيئاً عن الصخور التي تتحرك حسب معادلات رجل واحد، ولا عن الأسطول الذي اختفى بضربة واحدة، ولا عن السلام الذي صار أبعد مما كان قبل أن تُحسب تلك الزوايا.

شوقي أطفأ الأنوار في المكتب.

في الظلام بدا له للحظة أنه يسمع صوت الهيكل المعدني لـ«النسر» وهو يصرّ تحت ضربات النيزك. أو صوت زارا وهو يملي الأرقام بسرعة يائسة. أو صوت شاسا الأخير الذي لم يسمعه أحد.

ثم لم يعد يسمع شيئاً سوى طنين الأجهزة البعيد وصوت تنفسه هو.

ال حرب لم تنته.

السلام لم يبدأ.

والضربة الواحدة التي أنقذتهم...

كانت ما زالت تتردد في أماكن لا تصلها التقارير الرسمية.

وقف من مقعده، وعدّل زبّه، وخرج من المكتب.

ال ممر كان أبيض ونظيفاً وفارغاً.

وفي مكان ما بعيد جداً، بين الصخور والحطام الذي لا يزوره أحد،

كانت بقايا سفينة «القبضة الحمراء» ما زالت تدور

كأنها ترفض أن تنسى.

****الفصل الرابع عشر****

****خاتمة - ما يتردد****

بعد أربع سنوات من «ضربة النيزك»، صارت الحادثة درساً يُدرّس في الأكاديميات العسكرية على الجانبين.

على الأرض كانت تُسمى «المناورة الحاسمة في حزام كايلر».

على المريخ كانت تُسمى «مجزرة الصخور».

في الحالتين كان الاسم يخفي أكثر مما يظهر.

شوقي ترك الخدمة النشطة في السنة الثالثة. لم يُطرد، ولم يُرقَّ إلى الرتبة التي كانت منتظرة. فقط أُحيل إلى منصب استشاري هادئ في مركز أبحاث المدارات البعيدة. كان يمرّ أحياناً على المتدربين الشباب وهم يشاهدون التسجيلات الرسمية للمعركة: مناورات نظيفة، انفجارات محسوبة، عنوان «نصر بضربة واحدة». كان يستمع إلى تعليقاتهم المتحمسة ثم يخرج دون أن يصحح شيئاً.

عادل بقي في قسم التحليل. صار خبيراً في مسارات الحطام والنيك، وينشر أبحاثاً جافة عن «الاستقرار غير الخطي في الأحزمة الكثيفة». لم يذكر اسم زارا في أي ورقة علمية. حسني تزوج وعاش في مدينة ساحلية هادئة، وقطع معظم علاقاته القديمة. مرة واحدة فقط أرسل لشوقي رسالة قصيرة: «ما زلت أحلم بالصخور أحياناً. وأنت؟». شوقي لم يرد.

أما زارا فلم يظهر علناً مرة أخرى.

في السنة الثانية تسربت أنباء غير مؤكدة عن وفاته في حادث نقل بين مستعمرات نائية. الرواية الرسمية لم تؤكد ولم تنفي. بعض الأصوات على المريخ اعتبرته شهيداً خاتته الأرض بعد أن استخدمته. أصوات أخرى على الأرض همست أنه ما زال حياً في مكان ما، يكتب معادلات لن يقرأها أحد. شوقي لم يصدق أي رواية بالكامل. كان يعرف فقط أن الرجل الذي أمله عليه الزوايا في غرفة قيادة مهتزة لم يعد موجوداً في أي مكان يمكن الوصول إليه.

في إحدى الليالي خرج شوقي إلى سطح المرصد الصغير الملحق بمركز الأبحاث. السماء كانت صافية، والنجوم حادة كالمعتاد. رفع منظاراً قديماً باتجاه القطاع الذي حدثت فيه المعركة. لم يرَ شيئاً طبعاً. المسافة أكبر من أي ضوء، والحطام أصغر من أي انعكاس. لكن المكان كان ما زال هناك، في الخريطة الداخلية التي لا تُمحى: حزام من الصخور والموت والصمت.

تذكر للحظة صوت زارا وهو يقول:

«الضربة الواحدة لا تنهي شيئاً. هي فقط تؤجل.»

ثم أخفض المنظار.

في الأسفل، على سطح الكوكب الأزرق، كانت المدن تضيء وتطفئ أضواءها كالعادة. المفاوضات مع المريخ كانت تدخل جولتها السابعة عشرة. الحرب لم تشتعل من جديد... لكنها أيضاً لم تنته. فقط صارت أكثر هدوءاً وأكثر سماً، كجرحٍ يُغطى بضمادة نظيفة ويترك ليتقيح في الداخل.

شوقي عاد إلى الداخل وأغلق الباب خلفه.

في المكتب كانت الشاشات تعرض مسارات الأقمار الصناعية وتقارير الطقس الفضائي. لا شيء عن السلام. لا شيء عن الصخور التي تحركت ذات يوم حسب حسابات رجل واحد يائس. لا شيء عن الثمن الذي دفعه الجميع وبقي غير مكتوب.

جلس على الكرسي، وأغلق عينيه لحظة.

في الظلام خلف جفنيه رأى من جديد ومضات الانفجارات الصامتة داخل الحزام، ووجه زارا الشاحب، والضوء الأحمر الطارئ وهو ينعكس على عيون طاقمه.

ثم فتح عينيه وأعاد تشغيل الشاشات.

العمل كان ينتظر.

والفراغ خارج النوافذ كان كما هو دائماً:

واسعاً،

صامتاً،

ولا يغفر لأحد.